(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون [42] فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون [43] فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون [44] فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد رب العالمين [45]) لما أنذرهم بتوقع العذاب أعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل ليعلم هؤلاء أن تلك سنة ا في الذين ظلموا بالشرك .

وهذا الخبر مستعمل في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض وهم المخاطبون بالقول المأمور به في الجملة التي قبلها .

فجملة (ولقد أرسلنا) عطف على جملة (قل أرأيتكم) والواو لعطف الجمل فتكون استئنافية إذ كانت المعطوف عليها استئنافا . وافتتحت هذه الجملة بلام القسم و (قد) لتوكيد مضمون الجملة وهو المفرع بالفاء في قوله (فأخذناهم بالبأساء والضراء) . نزل السامعون المعرض بإنذارهم منزلة من ينكرون أن يكون ما أصاب الأمم الذين من قبلهم عقابا من ا تعالى على إعراضهم .

وقوله (فأخذناهم) عطف على (أرسلنا) باعتبار ما يؤذن به وصف (من قبلك) من معاملة أممهم إياهم بمثل ما عاملك به قومك فيدل العطف على محذوف تقديره : فكذبوهم .

ولما كان أخذهم بالبأساء والضراء مقارنا لزمن وجود رسلهم بين ظهرانيهم كان الموقع لفاء العطف للإشارة إلى أن ذلك كان بمرأى رسلهم وقبل انقراضهم ليكون إشارة إلى أن ا أيد رسله ونصرهم في حياتهم ؛ لأن أخذ الأمم بالعقاب فيه حكمتان : إحداهما زجرهم عن التكذيب والثانية إكرام الرسل بالتأييد بمرأى من المكذبين . وفيه تكرمة للنبي A بإيذانه بأن ا ناصره على مكذبيه .

ومعنى (أخذناهم) أصبناهم إصابة تمكن . وتقدم تفسير الأخذ عند قوله تعالى (أخذته العزة بالإثم) في سورة البقرة .

وقد ذكر متعلق الأخذ هنا لأنه أخذ بشيء خاص بخلاف الآتي بعيد هذا .

والبأساء والضراء تقدما عند قوله تعالى (والصابرين في البأساء والضراء) في سورة البقرة . وقد فسر البأساء بالجوع والضراء بالمرض وهو تخصيص لا وجه له لأن ما أصاب الأمم من العذاب كان أصنافا كثيرة . ولعل من فسره بذلك اعتبر ما أصاب قريشا بدعوة النبي A .

و (لعل) للترجي . جعل علة لابتداء أخذهم بالبأساء والضراء قبل الاستئصال .

ومعنى (يتضرعون) يتذللون لأن الضراعة التذلل والتخشع وهو هنا كناية عن الاعتراف بالذنب والتوبة منه وهي الإيمان بالرسل .

والمراد : أن ا قدم لهم عذابا هينا قبل العذاب الأكبر كما قال (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته ؛ وفيه إنذار لقريش بأنهم سيصيبهم البأساء والضراء قبل الاستئصال وهو استئصال السيف .

وإنما اختار ا أن يكون استئصالهم بالسيف إظهارا لكون نصر الرسول E عليهم كان بيده ويد المصدقين به . وذلك أوقع على العرب ولذلك روعي حال المقصودين بالإنذار وهم حاضرون .

فنزل جميع الأمم منزلتهم فقال (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) فإن (لولا) هنا حرف توبيخ لدخولها على جملة فعلية ماضوية واحدة فليست (لولا) حرف امتناع لوجود .

والتوبيخ إنما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود . ففي هذا التنزيل إيماء إلى مساواة الحالين وتوبيخ للحاضرين بالمهم من العبرة لبقاء زمن التدارك قطعا لمعذرهم .

ويجوز أن تجعل (لولا) هنا للتمني على طريقة المجاز المرسل ويكون التمني كناية عن الإخبار بمحبة ا الأمر المتمنى فيكون من بناء المجاز على المجاز فتكون هذه المحبة هي ما عبر عنه بالفرح في الحديث " ا أفرح بتوبة عبده " الحديث . وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله في قوله (إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) للاهتمام بمضمون جملته وأنه زمن يحق أن يكون باعثا على الإسراع بالتضرع مما حصل فيه من البأس .

A E